ƕǓDŽǏƿDŽǏ‖ɛ ƕǓďNjƿFDŽǏ‖ɛ ƕǓďFƓǀƿ‖ɛ ǀɛƥNj ƪďDŽ

ǈǏƓƥƯ ƧNjǏďNjƯďǉ ƒŬɛ

1993-1990 ǀNjȿƪƳ- ƕǐθ ǀɛɋFNJƪ
ǏDŽǏƿDŽǀǀɛ ƗƑθǀɛ ƒǏǂǏʒ ƒŬɛ !ǂȿƓ

السفر إلى روما

3 تشرين الأول 1993 – يوم الأحد صباحاً وهو أحد الوردية الكبير وعيد القديسة تريزيا الطفل يسوع، وصل أحد أنسبائي بسيارته إلى باحة دير مار سركيس وباخوس -عشقوت، وهو بين الابتداء للرهبنة المارونية المريمية ليصطحبني إلى مطار بيروت الدولي لأن السلطة الرهبانية نقلتني إلى رئاسة دير مار أنطونيوس الكبير في روما .كانت الساعة السابعة والنصف صباحاً، حيث وقف رهبان الدير بعد صلاة الصباح مع الإخوة المبتدئين ليدعوا لي بالسلامة .

لقد أمضيت في هذا الدير كرئيس ومعلم للمبتدئين مدة ثلاث عشرة سنة أي من 2 نيسان 1981 إلى 3 تشرين الأول 1993 . لقد كان الجو صامتاً، وبدت لي رهبة الوداع وألم الرحيل لا يرحم لأن شيئاً ما في داخلي، راح ينسلخ عن ذاتي، فقد حوى هذا الدير في جدرانه نفوساً شابة نقية، فتشت عن وجه الإله الحق وأحبّت يسوع حبّاً سرّياً .لا تستطيع الكلمات وصف الاختبارات الروحية العديدة في مسيرة هؤلاء الشباب نحو السماء وكيف أن شبكة يسوع قد اصطادت الكثير منهم فعلقوا بحبه ولازموه طوال العمر .

الانطلاق يقترب موعده فباتت أنفاسي ضيقة جداً وصعبة فقد غدا الهواء نادراً، وشعرت بالغصة تخنقني .في الحقيقة لقد عشت اختبار الموت رغم محبة الجميع لي وإرادتي الصالحة للعمل حيث تدعوني الطاعة المقدسة .لم أحمل إلا القليل من حوائجي أما ذاتي فبقيت منقسمة .واعجباه !لماذا هذا التعلق بالأرض؟ فباستطاعتي أن أجد يسوع أينما كان وحيث يكون يسوع هناك تكون أمُّه ومربّيه يوسف وقدّيسوه وملائكته .فطيلة حياتي لم أسأل عن أيِّ شيءٍ مطلقاً ولم أتعلّق بأشخاص أبداً . ولكن لا أدري ماذا أسمّي هذه الظاهرة في نفسي .لقد أحسست في ذلك الصباح بأني أشبه بطفل بحاجة ماسة إلى أمه .وها أنا اليوم أنفصل عن تلك "الأم الروحية "لكي أعيش بالحنين إليها وأعمّق الرباط الروحي رغم البعد الزمني الذي يفصل بيننا .

الوقت يدهمني والطائرة لا ترحم، فكنت تراني أودّع الجميع بالقبلة الرهبانية المعهودة في صمت مطبق وضبط المشاعر .ثم انطلقت بنا السيارة ولم ألتفت إلى ورائي لئلا أشبه "امرأة لوط "بل عملت بوصية الرب القائلة" :ما من أحد يضع يده على المحراث ثم يلتفت إلى الوراء يصلح لملكوت الله ")لو 67/9(.فيسوع وحده يكفي .ولكن يسوع يضع في دربنا نفوساً لا نأبه لها أو لا ننتظرها أو لا نتوقع وجودها إلى جنبنا، فتغيّر درب حياتنا وتجعلنا "ننتزح إلى العمق "فاتحة لنا آفاقاً جديدة مطعّمة أيامنا ببراعم سماوية جديدة، ومن ثم تدخلنا في اختبارات إنجيلية معيوشة، فتطيب لنا الحياة .فنعرف عندها أن السعادة هي في الله وحده، وأن العيش له هو الدعوة الملحة لكي نشهد لقيم السماء .

ومن بين هذه النفوس، أود التكلم عن الأب أنطونيوس طربيه)أو أبونا أنطون كما كنا نحب أن ندعوه(، الذي كان لي بمثابة نعمة كبيرة من الله لا أستحقها، فإني أراه حاضراً معي بصلاته وبركته، وما عشته معه لا يمكن أن يفارقني مطلقاً .فهو تلك "الأم الروحية "التي تسهر علينا وتدافع عنا حين تحدق بنا الأخطار والتجارب والساعات السوداء .

صورة عن الحرب

الجو ملبد بغيوم البغض والمطامع، والسلاح يوزَّع والمدافع تنصب في كل مكان، والمتاريس تقام بكثرة .لقد نزعنا نوافذ الدير من الطابق العلوي ووضعنا أكياس الرمل على الشبابيك في الطابق السفلي .فلا كهرباء ولا تدفئة وأحياناً لا مياه بل برد وصقيع، ونحن في الكوانين والمنطقة تُفرغ من سكانها .إن قوات الجحيم قد فلتت في الأرض وراحت ترقص رقصات الموت والدمار .فراح الأخ يقتل أخاه .ونُزعت حرمة الكنائس والأديار، فهُدم الكثير منها وخُرِّب، فكنت ترى الدبابات تقصف من الأحياء السكنية، والقوات المجابهة ترد عليها بالمثل، والنيران تلتهم البيوت ومن فيها وما تحتوي .ما من مغيث، والويل لمن يموت لأنه لم يكن هناك من دافن .

ففي هذه الفترة العصيبة، أصبح دار المسيح الملك في منطقة نهر الكلب – زوق مصبح، وهو المخصص لخدمة الكهنة العجزة، محجَّ القذائف والقنابل والعمليات العسكرية نظراً لموقعه الاستراتيجي .فحاولت راهبات الصليب عمل المستحيل لكي يبعدن الدار عن العمليات الحربية، رحمةً بالعجزة المسنين، ولكن باءت كل جهودهن بالفشل .فرحن يهرّبن المسنين غير العجزة، كل واحد إلى بيت ذويه واستبقين في الدار العاجزين عن الحركة تماماً، ومن بينهم أبونا أنطون .

في هذه الفترة العصيبة، ظل ديرنا في عشقوت يشكّل مكان أمان أكثر من غيره، لبعده عن الأماكن السكنية المكتظة، حيث بلغت الحرب ذروتها، وراح الموت يحصد الكثيرين، وخاصة الشباب المتحاربين .ففي هذه الفترة، أي في الحادي عشر من شهر شباط 1991، وهو عيد سيدة لورد، حُمل الأب أنطون إلى ديرنا مع راهب آخر عاجز هو الأب سمعان طربيه وكان أعمى وأطرش لأن دار المسيح الملك قد أُغلق نهائياً، فلا أمان فيه ولا مياه ولا غذاء ولا خدمة طبية .فقد شُلّت كل عاطفة وماتت كل محبة، "فملائكة الرحمة "قد تبددت وأصبح ديرها خراباً، سكن فيه الخوف والموت .لقد استقبل ما تبقى من جمهور الدير الأبوين الفاضلين بالترحاب والمحبة الرهبانية وتمّ إسكانهما في غرفة تقع في وسط الدير من الجهة الشرقية إذ كنا نظنها الأكثر أماناً والأقل تعرضاً للقصف .

عطية الله :الخبز السري

إن الحوادث الدامية التي عصفت ببلادنا قد عرفت هدنة خجولة وظلّت منطقتنا شبه مشلولة ولم تعرف الحركة التي كانت تضج بها قبلاً .لم نكن نرى أحداً في ديرنا لندرة الزوار ولصعوبة الطريق وما يصادف عليها من حواجز وسواتر ترابية وحالة أمنية متردية والخوف من انفجار مسلح مفاجئ .وكان الأب سمعان طربيه وهو ضرير وأصم، كما ذكرت سابقاً، يقطن مع أبونا أنطون في غرفة واحدة لسهولة خدمتهما .كما أن موقعها في وسط الدير كان يشكل ملجأ آمناً يقي من القذائف وشظايا الانفجارات)هكذا بالأحرى كنا نظن(.وكان يفصل بين سريريهما خزانة صغيرة)كومودينا(.ففي أحد الأيام وهو 12 حزيران 1991، زارنا أحد الأصدقاء يحمل معه كيساً صغيراً من الخبز المحضر بالحليب) Pain au lait(يحتوي على عشر قطع صغيرة مألوفة، هدية لأبونا أنطون .ولم يحمل معه غيره بشهادتي وشهادة الذي كان يخدمه وهو الأخ المبتدئ برنردوس الحشاش .ولما حان وقت تناول طعام الغذاء، حمل إليه الأخ المذكور الطعام وهو طبق الأرز المسلوق مع اللبن الرائب وكان يقول عنه أبونا أنطون إنه "مأكول الملوك والسلاطين ."في ذلك اليوم، رفض أبونا أنطون أن يتناوله بل أراد الاستعاضة عنه بالخبز المهدى له .فكان له ما طلب .وكم كانت دهشة الأخ برنردوس كبيرة عندما رأى كيف قضى أبونا أنطون على القطع كلها رغم صعوبة المضغ عنده وتناوله الخبز بدون سوائل .وعندما فرغ الخبز، سأله الأخ قائلاً :

- أبتِ، هل آتيك الآن بالأرز المسلوق واللبن الرائب؟

أجاب أبونا أنطون بالنفي، ثم قال له :

- أريد المزيد من الخبز المصنوع بالحليب .

فأجابه الأخ برنردوس :

- لم يعد لدينا منه، لقد نفذ كله .
- كلا !بل هناك أيضاً الكثير منه.
- أبتِ اسمح لي أن أقول لك إني أنا من استلم الخبز عند الصباح ولم أستلم غير كيس واحد .فهل تسمح لي أن أبلّغ الأب الرئيس بذلك فيذهب عاجلاً ويحمل لك ما تريد من الفرن؟
- كلا.

عندها قام الأخ برنردوس يفتش الغرفة علّه يجد الخبز المزعوم، فلم يجد شيئاً، عندها طلبني ولما حضرت، سألني قائلاً :

- هل في الدير خبز من هذا النوع؟ أجبته بالنفي علماً أني رأيت أنا أيضاً ما حمل له الزائر من الخبز .ثم قلت لأبونا أنطون :أبتِ أنا ذاهب إلى الفرن لأحمل لك ما يلزم .

فأجاب :

- كلا، بل هناك كيسان أيضاً أريد أن أتعشاهما .

ومن المعلوم أن أبونا أنطون كان لا يتناول إلا وجبة واحدة من الطعام طيلة اليوم، وذلك قبل الساعة الرابعة عشرة .وإذا صدف وتأخر المسؤول الذي كان يحمل إليه الطعام المعهود عن هذا الموعد، كان يعتذر عن تناوله وذلك لأن صوم النساك يبدأ من هذه الساعة، كما جاء في قوانين النساك الذي وضعه أبونا المؤسس المطران عبدالله قراعلي .بعدها التفت أبونا أنطون إلى الأخ برنردوس وقال له بصوت خافت" :من فضلك، أرجو أن تنقلني إلى الفراش ."فأجابه على طلبه وسط استغرابنا وتعجبنا من إصراره على وجود الخبز .

كان من عادة الأب سمعان رفيقه في الغرفة عينها تناول طعام العشاء حوالي الساعة الرابعة بعد الظهر وقد كان علي أن أقوم بإطعامه بسبب فقدان بصره كما أشرت سابقاً .وبعد الانتهاء من العشاء قمتُ بتنظيف الكومودينا الفاصلة بين الأبوين ولم أدع عليها شيئاً البتة، ثم تركت الغرفة لأدخل الكنيسة لأن جرس الصلاة قد قُرع لإقامة صلاة قلب يسوع الأقدس أولاً قبل صلاة المساء المعهودة .

في هذه الفترة، دخل الأخ برنردوس الكنيسة متأخراً عني قرابة عشر دقائق، لأنه كان مولجاً بوضع أبونا أنطون على جنبه .وهذا العمل كنا نقوم به دوماً وبحالة مستديمة ليلاً ونهاراً إذ كنا مجبرين على تحريكه ووضعه فترة نصف ساعة على جنبه، وفترة ساعة كاملة على ظهره تجنباً لتفاقم جروح عقره .ولم يلاحظ الأخ أي شيء جديد في الغرفة .وبين انتهاء صلاة قلب يسوع الأقدس وبدء صلاة المساء أي بعد حوالي 15 دقيقة تقريباً، دخل الأخ برنردوس مجدداً على أبونا أنطون ليضعه على ظهره كالمعتاد، وكم كانت المفاجأة كبيرة :لقد كان على الكومودينا النظيفة كيسان من الخبز المصنوع بالحليب حسبما قال لنا عند الظهر علماً أن أحداً لم يدخل الدير إطلاقاً في هذا الوقت .فأخذنا العجب من هذا الحدث العجيب !لأن باب الدير الرئيسي كان مغلقاً ولا أحد يستطيع الدخول إطلاقاً .

وفي اليوم التالي، سألته :أبتِ !من الذي حمل لك الخبز؟ فكان الجواب أن طفرت الدموع غزيرة من عينيه مثلما كان يحدث دوماً معه في كل مرة كان ينعم عليه الرب بالنعم والخيرات والبركات .

ولا عجب !ألم ينعم الله على النبي إيليا بالتعزية عندما كان مختبئاً في جبل الكرمل من وجه آحاب وإيزبل، وكان يرسل له الخبز بواسطة غراب؟ وهكذا كان أيضاً مع القديس مبارك وغيره من القديسين؟ وكأنه أراد أيضاً أن يعزيه في آلامه المبرحة الشديدة الوطأة ليقول له :يا أبونا أنطون لا تخف !فها أنا معك في تسميرك معي على الصليب، فإن أوجاعك وآلامك تشهد على عمق محبتي لك ولأخوتك المعذبين أمثالك بسبب الاقتتال وهرق الدم البريء .تشجع واصبر فإن الفرج لقريب" .من يظلم فليظلم بعد، ومن هو نجس فليتنجس بعد، ومن هو بار فليتبرر بعد، ومن هو قديس فليتقدس بعد .هاأنذا آتٍ سريعاً وجزائي معي لأكافئ كل واحد على حسب أعماله ."
)رؤ 12/22 (

ولم يجرؤ أحد بعد على سؤاله لأننا لمسنا أن يد الله معه فلا يجوز معرفة أسراره، بل علينا أن نمجده ونقف مدهوشين أمام رحمته وعظمته .

حماية العذراء له :حريق في قلاّيته

إن محبة أبونا للسيدة العذراء ظهرت جلية في مختلف مراحل حياته .فقد كان متعلقاً بها إلى حد أنه كان دوماً يلهج بذكر اسمها ويدعو زائريه لتكريمها والاتكال عليها واللجوء إلى حمايتها .فشفاعتها لا ترد وهي لا تخيّب أحداً .إن هذه الأم السماوية قد ملكت على قلبه، فكان يتلو ورديتها كل يوم .وقد جعلنا على يسار سريره صورة قلبها الأقدس ملصقة على الحائط، ليظل نظره واقعاً عليها، وذلك حسب طلبه .وهي الصورة التي يكرمها البابا يوحنا بولس الثاني والذي جعل حبريته تحت حماية الوالدية، وكتب أول حرف من اسمها الكريم على شعاره مع هذه الكتابة :كلي لكِ *Totus Tuus* .

إن هذه البتول الفائقة الطهارة كانت المعزية والمشجعة والحاضرة دوماً في ساعات أبونا أنطون الأليمة منها والمفرحة، في أوقات التجارب، وفي لحظات التجلي، وكأني به طفل صغير بين يدي أم قديرة، مملوءة حناناً وعذوبة، تسهر على أولادها وبيتها، فكم بالحري على من طلب شفاعتها وحمايتها .وإثباتاً لكلامي هذا، أورد الحادثة التالية :

دعاني الأب جرمانوس خوري، رئيس دير مار شليطا – كفرذبيان، للاحتفال بعيد شفيع الدير وكان ذلك في عشية 19 تشرين الأول 1990 .ولدى رجوعي عند الساعة التاسعة ليلاً، استقبلني جمهور الأخوة الرهبان، ورحنا نمضي بقية السهرة سوية في الغرفة المعهودة .وكانت عادتي في كل مرة، عند رجوعي من الخارج، أن أتفقد أبونا أنطون فإذا به في تلك الليلة يصلي كعادته .وعند الساعة التاسعة والنصف، أحس الجميع أن شيئاً غريباً يحدث في الدير وإن ضوء المصباح الكهربائي بدأ يرتجف، وأن رائحة كريهة راحت تنتشر في أنحاء الدير .فقام البعض منا يبحث عن السبب، وكانت الروائح الغريبة تشتد كلما اقتربنا من غرفة أبونا أنطون وكان بابها مغلقاً .

ويا لهول ما رأينا :الدخان الأسود يخرج بكثافة من الطاقة الموجودة فوق بابه .عندها فتحت الباب بسرعة، فإذا "بالكومودينا "تحترق وألسنة النار تتعالى حتى راحت تلتهم خزانة الحائط القديمة الموجودة خلفها والحاوية بعض الكتب، حتى أنها وصلت إلى السقف المصنوع من الكرتون المقوّى .ولم نكن بحاجة إلى إضاءة النور، فالنار كانت كافية لرؤية أبونا أنطون مسمراً على فراشه لا يبدي حراكاً، وهي على بعد شبرٍ واحد منه . عندها هرع إليه الأخ مانويل يونس، وبحركة عفوية حمله على ذراعيه وما عليه من أغطية)أي شرشف من كتان وحرام أبيض من القطن(، وأخرجه خارجاً إلى غرفة السهرة، فرُحت أطفئ النار بحرام من الصوف دون استعمال الماء خوفاً من أن يكون الحريق ناتجاً عن احتكاك في الأسلاك الكهربائية، فيتفاقم الوضع أكثر .وعندما قضيت على النار مع من ساعدني بعد جهد جهيد لقلة الأوكسجين وانتشار الدخان والشحتار، خرجنا، فبدت وجوهنا سوداء كالحة .بعدها توجهت إلى حيث كان أبونا أنطون لأتفقد حالته فإذا به هادئ مبتسم، غارق في سكون عميق .

...وكان الله في النسيم :هدوء العاصفة

بعد أن هدأت العاصفة، استطعنا تسجيل الملاحظات التالية :

أولاً :سكون أبونا أنطون وهدوءه وكأن النار لا تعنيه إطلاقاً رغم أنها كانت على بعد شبر واحد منه فقط، كما ذكرت، وهو عديم الحراك، لا يستطيع الهرب ولا الصراخ ولا استعمال جرس الإنذار أو أية وسيلة استغاثة بل بدا وكأنه أكيد من نجاته، تحرسه يد قوية قديرة .

ثانياً :رغم كثافة الدخان في غرفته والروائح الكريهة، لم يجد أبونا أنطون صعوبة في التنفس ولم يبدِ أي انزعاج ! وعندما سألته :هل تشعر بأي ألم، وهل آتي إليك بالطبيب؟ فكان الجواب بالنفي إذ لا لزوم لذلك .

ثالثاً :إن ثياب أبونا أنطون ظلت نظيفة بيضاء، ووجهه يلمع بنضارة مميزة وتوهج منير وكأنه وجه ملاك من السماء .

عندها ذكرنا ما كتبه القديس اثناسيوس عن القديس أنطونيوس الكبير عندما اكتشفه الناس بعد أن اعتزل العالم مدة عشرين سنة، حابساً نفسه داخل قبرٍ قديم، فكان لا فرحاً ولا حزيناً، ولا شاباً ولا عجوزاً ...بل هادئاً، فرحاً، ساكناً غير مضطرب ...

أما مسألة الحريق فقد ظلت تشغل بالنا ولم نجد لها سبباً، إذ لا شموع مضاءة والأسلاك الكهربائية بحالة جيدة .وفي اليوم التالي سألناه عن المسبب؟ ابتسم فرحاً وأخبرنا مفصلاً بصوت خافت وهادئ، وبكلام قليل كعادته، قال :

بينما كنا أصلي وإذ بغتة أرى بعين العقل، أربعة شياطين بشكل رهبان يدخلون فجأة عليّ، ويحيطون بي وهم يصرخون :النصر لنا !النصر لنا !فأجبتهم خسئتم !وعندها اشتعلت النار .فاستنجدت بالبتول القديسة مريم وإذ بي أراها أيضاً بعين العقل تدخل علي وتمر يدها فوق السرير وتحفظه من أي ضرر .وهنا فهم جميعنا سر سكونه وهدوئه .

فالذي يعيش في حضرة الله لا يعرف الخوف، فالخائف كما يقول يوحنا الرسول "غير ثابت بالله ."وحياة أبونا أنطون كانت فعل اتكال على رحمة الرب وعنايته .لذا كان السلام يملأ قلبه، لا الخوف الذي هو السم الذي يقطره الشيطان في نفوسنا ليقتل علاقتنا بالله .وقد تذكرنا جيداً كيف كانت كثافة الدخان والشحتار تعلو سريره على مسافة نصف متر تقريباً، لذا بقي هو وسريره وأغطيته سليمين نظيفين لا أثر لرواسب الحريق عليهم .لقد حفظته السيدة القديسة من هجمات الشياطين، فدحرتهم وأخزتهم بطهارتها وقداستها، وحفظت عبدها أبونا أنطون من ضررهم .فهي حقاً كما نستغيث بها في طلبتها المشهورة :

"أنت سلاح رب القوات، فيك نقهر أعادينا ."

ولا غرو فإن قديسين كثيرين تعرضوا لهجمات إبليس، وعلى سبيل المثال، القديس خوري آرس وكيف أشعل إبليس النار في فراشه وأيضاً الطوباوي بادري بيو الذي صارعه عدو الجنس البشري، وغيرهما من القديسين .

هذه الحادثة جعلتنا نلاحظ أمراً آخر، أن أبونا أنطون كان يتعرض لهجمات عدو الجنس البشري منذ فترة طويلة .وقد فهمنا بعد هذه الحادثة، سر صومه عن المأكل والمشرب والكلام أيضاً .فكان لا يأكل إلا صنفاً واحداً من وجبته اليومية الوحيدة المعهودة :الأرز المسلوق مع اللبن الرائب .فقد استعدّ للمعركة الشرسة بسلاح الإنجيل حسبما قال الرب يسوع" :إن هذا النوع من الشياطين لا يخرج إلا بالصوم والصلاة ")متى 21/17 .(

أما الأشياء الموضوعة على الكومودينا، والتي اشتعلت فيها النار في ذلك اليوم، فهي التالية :

روزنامة القديسة تريزيا الطفل يسوع، وقد حملها إليه الاخوة الرهبان في دير سهيلة، وعقاقير طبية، وقنديل شمع أحمر غير مضاء، وبعض الرسائل والصور الفوتوغرافية المرسلة إليه طلباً لصلاة شفاء أو لنيل نعمة خاصة، إضافة إلى علبة محارم ورق صحية، وفوطة سفرة من القماش .فان اشتعل الكل :الشمع والقماش والورق والبلاستيك والخشب ...فذلك كافٍ للتسبب بحريق هائل والقضاء على إنسان بكامل قواه الصحية .فصحّ فيه قول المرنّم" :إذا اصطف علي عسكر فلا يخاف قلبي، وان قام علي قتال ففي الله ثقتي ")مز 3/27 .(

وفي اليوم التالي عندما زارنا الطبيب نادر الحاج ورأى آثار الحريق في الغرفة صرّح قائلاً" :حقاً إن هذا الكاهن قديس، وحتماً قد حفظته يد سرية قديرة .فأنا أعرف كطبيب، طاقة رئتي أبونا أنطون الصغيرتين، بعد أن عاينته مراراً، على تحمل الدخان ونقص الأوكسجين .في مفهومنا الطبي أستطيع أن أقول إن هذا الحريق المحصور ضمن غرفة صغيرة كافٍ للقضاء اختناقاً على أي إنسان كان ."

وفي اليوم التالي، وكان يوم أحد، طلب أبونا أنطون أن لا يزوره أحد بعد القداس وطيلة أسبوع كامل .فقد تفرّغ خلال هذه المدة، أولاً :لرفع صلاة الشكر لله على عنايته به، وثانياً :للهرب من المجد الفارغ الذي كان سيلقاه حتماً من زائريه .فالشكر لك أيتها البتول على كل ما تصنعينه لنا لنلمس محبة ابنك يسوع ورحمته وعنايته بنا في كل لحظة من حياتنا .

شفاء بين عيدي السيدة العذراء

نحن في أحد أيام الربيع الدافئة والطبيعة تستعيد دفأها وجمالها .فالزهر يغطي الأشجار، بعد أن هجرتها الثلوج، وعادت الأغصان تكتسي بالاخضرار، والشمس تدغدغ الحقول والجبال والأحراش وكأنها تلبس الطبيعة حلتها الجديدة .فالشهر هو شهر مريم العذراء، ونوّار مميز بين كل شهور السنة .إنه موسم الزرع وأم يسوع تبارك كل ما يبذر ويغرس في الأرض "فيعطي عوض الواحد مئة ."نزرع بالهوان فيقوم بالمجد، نضع في طحيننا خميراً فيكون لنا عجيناً ثم خبزاً ...

لقد خرج الرهبان ليعملوا في أرض الدير، ليحتكوا بالطبيعة، ليختبروا "كيف أن بولس يزرع وابلّو يسقي وكيف أن الله ينمي ")1 قور 6/2(.تقول تريزيا الصغيرة "إن الطبيعة هي كتاب الله المفتوح "ليعلمنا أنه حاضر، وهو معطي الحياة، وهل أجمل من التعاطي مع الحياة بالذات بشتى أشكالها، واكتشاف كيف أن الله يعمل في داخلها؟

إن أيار هو شهر السرور، ومريم تبارك فيه كل شيء .فهي أم النعم والبركات، أم الحضور الإلهي لتشفع وتشجع وتقوي وتقول لنا :لا تخافوا فإن ابني يسوع هو معكم وهو حاضر دوماً ليصنع بكم العظائم .

وفي أحد الأيام الجميلة، وقبل صلاة منتصف النهار، توقفت سيارة صغيرة في ساحة الدير ونزل منها بعض النسوة ومعهن طفل لا يتجاوز عمره السنتين .إنه جو ابن روكز ريشا من صربا .قصدن الدير والغصة في قلوبهن الملهوفة، فهن لا يدرين إلى أين يذهبن والطفل ينطفئ رويداً رويداً بين أيديهن، فسرطان الدم لا يرحم، ولقد بات على جو أن لا ينعم بالنمو والحركة كبقية الأطفال، بل كان عليه أن يتابع علاجه الصارم ولا نتيجة منه ترتجى .فقد راح شعره الذهبي يتساقط، وعلا الاصفرار وجهه، ونحل جسمه .فباتت براءة الأطفال عنده كآبة وغدا الدلال شفقة عليه .دخلن الكنيسة وصلّين بحرارة .لقد جئن إلى هذا الدير طلباً لنعمة شفاء، مفتشات عن نفس قديسة تطلب لهن ذلك من الرب يسوع .لقد سمعن برجل الله أبونا أنطون، وتراهن اليوم يهرعن إليه طالبات منه بركة خاصة لهذا الطفل الذي مصيره الموت المحتم والمبكر وقد أعطاه الطب شهراً واحداً من الحياة .نظر أبونا أنطون إلى الطفل وصلى طويلاً، وكانت أنفاس الحاضرين شبه مقطوعة، فقد غدا حبيبنا وكأنه الأمل الوحيد لهن

لشفاعته المقبولة لدى الله .وعند انتهاء الصلاة، سألته إحداهن :هل يُشفى جو؟ أجابها :بمعجزة من السيدة العذراء . فقلن له متلهفات وبعفوية وبساطة كلية ملؤها الإيمان :وهل تتم المعجزة؟ عندها راح أبونا أنطون ينظر، وهو مستلقٍ على ظهره في فراشه، إلى صورة السيدة العذراء الموضوعة عن شماله حيناً وحيناً آخر إلى الطفل جو الذي عن يمينه .ثم أخذت الدموع تنهمر من عينيه غزيرةً جداً .بعدها راح صدره يعلو ويهبط كمن يختلج بالروح، ثم أجاب :أجل، بين عيدي العذراء !بعدها دخل في صمت مطبق .عندها راحت النسوة يرددن " :الشكر لك أيتها العذراء، يا حبيبة الجميع، أنت يا أم يسوع المخلص .لقد شُفي الطفل جو ولم نعد بحاجة إلى أي شيء .العذراء سوف تتولى أمره .لقد شفته ..."ثم خرجن ودخلن الكنيسة، وهرعن إلى أمام تمثال الأم البتول الحاملة الطفل الإلهي يصلّين ويقرعن صدورهن، ويضئن شموعاً وينذرن النذور ...وكل هذا بمشهد مني وبحضوري .

ومرت الأيام، والإيمان يغمر قلبي الوالدين .فلا حاجة لجو إلى أي علاج .فدواؤه الوحيد هو السماء . وشفاعة أم الله مريم وبركة أبونا أنطون التي ألهبت فيهما الاتكال على الله والتسليم لمشيئته .

وبعد مدة من الزمن، جاء والدا جو إلى الدير وسألا أبونا أنطون :

يا أبونا أنطون، لقد استطعنا بهمة معارفنا أن نحصل على منحة طبية لطفلنا جو لكي يعالج في فرنسا .فماذا تقول لنا :هل نحمله إلى هناك؟ ونحن قد أوقفنا له كل علاج ودواء إذ لم يعد جو لنا، بل صار ملكاً للعذراء؟؟

فكان الجواب التالي :لا مانع من الذهاب إلى فرنسا، ولكن لا لزوم إلى ذلك، فالعذراء قد شفته !ثم كعادته دخل في صمت مطبق .

وبعد مرور زمن من أشهر الصيف، خطر على بال الوالدين أن يجريا فحصاً مخبرياً لطفلهما جو الذي أخذت صحته تعود شيئاً فشيئاً، وعاد يأكل بشهية ويلعب مع أترابه وأخذ وجهه يستعيد رونق الطفولة الضاجة بالحياة .فكانت النتيجة حسنة، فالدم عاد طبيعياً .فأخذ الدهش الطبيب المخبري الذي كان يعرف عائلة جو، وهو الذي أجرى له في الماضي عدة تحاليل طبية .بعدها راح والداه يلتمسان نتيجة إيمانهما، فحملا الطفل إلى مستشفى الجامعة الأميركية لدى طبيب من الطائفة الشيعية، ومعهما نتيجة التحاليل المخبرية، فما كان منه إلا أن صرّح بالقول :إن كل شيء على ما يرام وإن كل شيء طبيعي، ثم أردف :يظهر أن العلاج فعل فعله ونجح في شفاء الطفل .فما كان من الوالدين أن تبسما وقالا له :يا حضرة الطبيب، إن جو لم يتناول أي دواء منذ أشهر كثيرة .ثم خرجا عن صمتهما وأجاباه :نحن مسيحيان ودواؤه الوحيد أننا قد سلمناه للسيدة العذراء وهي التي أوصلته على ما هو عليه بفضل صلاة أبونا أنطون .فأجابهما :وأنا أؤمن بقدرة الله وشفاعة ستنا مريم .وما علينا الآن إلا أن نجري له فحصاً مخبرياً آخر ونهائي وهو الذي سيظهر لنا حقيقة الشفاء .عندها خلعوا عن الطفل ثيابه، ثم أخذ الطبيب إبرة طويلة وقال :بسم الله الرحمن الرحيم باسم ستنا مريم، وغرزها بين خرزتين في سلسلة ظهر جو وسحب بواسطتها كمية من ماء النخاع الشوكي لإجراء الفحوصات الطبية اللازمة، فكانت النتيجة أن دم الطفل وتوالده طبيعيين ولا أثر لأي مرض فيه .

ولا تسل كيف انتشر الخبر المفرح وكم أُشيد بعظائم الرب القدير وكيف حُمل الطفل إلى كنيسة مار سركيس وباخوس يوم الأحد، حيث أُقيم قداس شكر لله وكنت أرى كل يوم أحد، كيف كان يهرع جو إلى غرفة أبونا أنطون ويُدخل رأسه تحت الغطاء ليصل إلى يده طالباً البركة والصلاة، ولا تسل كيف كانت دموع أبونا أنطون تنهمر غزيرة فرحاً وشكراً للأم السماوية التي شفت الطفل جو بين عيديها أي انتقالها إلى السماء في 15 آب ومولدها في 8 أيلول .

"لقد جعل الله شوكة في جسدي لئلاً أستكبر"

إن قصة الألم مع أبونا أنطون لقصة طويلة وموجعة، وإن الذي رأيته ولمسته لا أستطيع وصفه البتة .

لما حُمل أبونا أنطون إلى دير مار سركيس وباخوس عشقوت في خضم أحداث سنة 1990، ظننا أنا والاخوة الرهبان، أن مجرد وضعه في فراشه وتأمين حاجاته الضرورية اليومية كافٍ للاعتناء به، لخدمته وراحته، وهو في شيخوخة لا يستطيع الحراك .ومع مرور الأيام، راحت تظهر بداية آثار جروح عقر في مواضع كثيرة من جسده وبالتحديد في المواضع التالية :عند الكاحلين، بين الفخذين والكتفين، وفي ورك جنبه

الأيسر .والحق يقال إن هذه الجروح بدأت تظهر يوم كان في دار المسيح الملك، إبان الحوادث الدامية، يوم لم يعد للراهبات من أمن وماء ودواء وممرضين، بل خراب ودمار وقصف مدفعي وسلاح ورجال حرب يسكنون القلالي والقاعات، وغرف المرضى والعجزة التي تحولت إلى متاريس وقلاع ومرابض ومدافع كما ذكرت سابقاً . ولما رأيت أن وضعه الصحي بات خارج مألوفنا، استدعيت له الطبيب وهو الدكتور نادر الحاج .وبعد معاينته أفادنا أن الوضع خطير جداً، خصوصاً وأن جروح العقر أخذت تأكل اللحم مما جعله يهترئ وتفوح منها رائحة غير مستحبة .وهذه الجروح تسبب لصاحبها آلاماً مبرحة خصوصاً وأن سن أبونا أنطون لا يستطيع المقاومة .ثم قال لي الطبيب" :يتحتم له توفير عناية خاصة ودقيقة للغاية بالإضافة إلى عقاقير طبية قد لا تنفع مطلقاً في وضعه الحالي ."وهنا بدأت معركة جديدة مع آلام جديدة، وقد لا تكفيه أوجاع الروماتيزم التي طرحته في الفراش عديم الحراك منذ قبل سنة 1980 والبركنسون والفطر المعوي ...ثم ظهر عنصر جديد، وهو ارتفاع الحرارة التي راحت تنهش ما تبقى من جسده .ومرة، حدث أن الممرض جورج حرب، الذي استدعيته ليعتني به إلى جانبنا، وهو ذو خبرة واسعة خصوصاً وأنه قد خدمه في دار المسيح الملك لسنوات طويلة، دعاني لأرى شيئاً لم يكن في الحسبان، وهو فظاعة العقر في جنبه الأيسر .فقد اهترأ اللحم وبان حق الورك .لم يكن من أثر للحم عليه وكان يدور على نفسه كلما حرك الممرض جنبه مما جعله يقول لي :إن الوضع خطير، والأيام القليلة المقبلة سوف تكون حاسمة، إذ لا يمكن لبشري أن يصمد في وجه هذه الجروح، أو يستطيع تحمل الآلام المبرحة والحرارة المرتفعة .

ولكن "الله يهدم ليبني ويقلع ليغرس ")ارميا 10/1(، فقد افتقد عبده أبانا أنطون الذي سلم ذاته إليه تسليماً مطلقاً وأوكل أمره إلى الذي خلقه .لقد كان امتحان الأوجاع والآلام فرصة سانحة لإظهار صبره ومحبته ليسوع المتألم .فلا تأفف ولا تذمر ولا طلب دواءً ولا طبيباً .وكأني به قد نصب صليبه إلى جانب صليب معلمه الإلهي . فالجلجلة تتسع للنفوس الكبيرة الملبية لصوت يسوع المدوي" :أنا عطشان ")يو 29/19(.ولا تسل كيف كان يتبلل كله بالعرق كلما اشتدت عليه الآلام، فيصبح وجهه الملائكي أحمر اللون، وكأنه يقطر دماً، فيروح يردد مراراً :ارحمني يا الله كعظيم رحمتك ")مز 1/51 .(

ومرة حدث وهو في إبان مرضه، أننا وضعنا سريره إلى جانب النافذة، ملتصقاً بالحائط، بغية الاستئناس بالطبيعة ولكن حدث ما لم يكن بالحسبان، إذ في إحدى الليالي، خرج نمل أحمر صغير من شق في الحائط وتسلل إلى فراشه حتى وصل إلى عقر وركه، وراح ينهش اللحم بنهم، وكم ارتاع الأخ المكلف بخدمته في تلك الليلة من هذا المنظر المريع، ومع ذلك ظل أبونا أنطون ساكناً هادئاً .

"تكفيك نعمتي "

إن الله نزل إلى عبده أبونا أنطون وقد شابه ابنه الحبيب في بستان الزيتون، وعند جند بيلاطس، وفي تسميره على الصليب .فقد أعطاه نعمة الإيمان في تحمل مشقاته التي شابهت أوجاع أيوب الصديق، وقاده رويداً رويداً في تخطي جلجلته هذه شهادة لمحبته المخبأة في أعماق الآلام والأحزان .وقد تجلت هذه المحبة إذ افتقده برحمته وحنانه عاجلاً، فراحت الجروح تلتئم شيئاً فشيئاً، وبقي عقر وركه الأيسر يتماثل للشفاء لمدة تفوق الثلاث سنوات، مما يذكرنا "بشوكة "الرسول بولس "التي جُعلت في جسده لئلا يستكبر ")1 قور 7/12 .(

رغم كل هذه الآلام، ظل أبونا أنطون ساكناً، وكنا نشعر بسعادة كبرى كلما قمنا بخدمته، وكنا نرى وجهه ينضح نضارةً وسلاماً رغم سنه المتقدمة، وكأنه وجه ملاك يحيا معنا على الأرض .لقد تحمّل الأوجاع المبرحة، تضامناً مع أبرياء وطنه المعذب، عالماً أن ما يصيب لبنان ليس إلا مرحلة مخاض، وأن كنيسته تجتاز امتحاناً عسيراً، ومرحلة تطهير لكي يُرسّخ الإيمان، ويكبر الرجاء، وتسود المحبة .

كان يتألم في جسده وفي روحه أيضاً، خصوصاً عندما كانت تنهار القذائف المدمرة على محيط الدير، وتتطاير الشظايا زارعة الرعب، حتى إن إحداها خرقت النافذة واستقرت على فراشه فلم يرتعب بل ظل هادئاً، ووجهه يطفح بسلام سماوي، مردداً مع يسوع" :يا أبتاه !لتكن مشيئتك لا مشيئتي ")متى 39/26(.ومع هذا كله لم يطلب طبيباً ولا علاجاً، بل وضع نفسه في تصرف رؤسائه، فكان لا يتناول الدواء إلا إذا أُمر بذلك .

"هدية مار مارون "

هذه الآلام قد رافقت ناسكاً طيلة حياته المتبقية على الأرض :إذ كان يشكو من يبوسة في مفاصله، واعوجاج في أصابع يديه، وانعدام الحركة في أطرافه، كما كانت رجلاه من الركبتين إلى أخمص القدمين مسودتين أو قُل محروقتين .ولما سألته عن السبب، أجابني مبتسماً :إنها هدية مار مارون .ولما قلت له لم أفهم الجواب، أخبرني أنه مرةً، بينما كان عائداً إلى دير مار اليشاع في الوادي المقدس بعد وعظ الصوم في إحدى الرعايا المجاورة، غدره الثلج المتراكم، فأضاع حذاءه فيه واضطر عندها أن يتابع سيره حافي القدمين إلى أن وصل إلى الدير . ففعلت برودة الثلج فعلها فاحترقت قدماه من شدة الصقيع، واحتقن الدم فيهما، وبقيتا سوداوين طوال عمره .وكان ذلك ليلة عيد أبينا القديس مار مارون .فحسب ذلك نعمةً وبركة سماوية .

ومما لا يخفى على أحد أن الطبيب الدكتور نادر الحاج كان يعاينه كل شهر وكل ما دعت الحاجة .فكان يأتي إلى زيارته بلهفةٍ وحبٍ، ويصف له العلاج المناسب، لأن سنه المتقدمة كانت تعرضه للرشوحات وما يرافقها من نزلة صدرية وزكام وما شابه ذلك .ولكن الصراع الدائم على أبونا أنطون، كان بين الدكتور نادر والأمراض الفطرية المؤلمة التي أصابته لسنين طويلة بسبب استلقائه الطويل على فراشه وهو عديم الحركة، مما جعل الفطر يمتد من المعدة إلى البلعوم فالحلق، مانعاً إياه أحياناً عن تناول أي طعام أو سائل .

أبونا أنطون ووسائل الإعلام

كنت أخاف أن تكون خدمتنا له ناقصة ولا تفي بالعناية المطلوبة، وكنت أشفق عليه كونه يعيش وحيداً في عزلة، في بعض الأحيان .ففكرت أن أضع له في غرفته جهاز تلفزيون لكي يسلي نفسه في وحدته .ولما فاتحته بالموضوع، نظر إلي نظرة جعلتني أرتعب أمامه لسخافة اقتراحي ما جعلني أفهم من دون أن يتفوه بكلمة واحدة : أن سعادته هي في الوحدة، وفي خلود النفس إلى خالقها، في الصمت والسكينة، فلا وقت عنده للإضاعة والعبث .

فرحتُ أعتذر منه مبيناً نيتي السليمة، وفهمت عندها أن القديسين هم دوماً في سباق مع الزمن .فلا مجال للّهو، وقد بلغ الزمن ملأه في تجسد الابن الحبيب يسوع .

ومن الملفت للنظر أن أبونا أنطون كان على اطلاع بكل ما يجري في هذا العالم من أمور وطنية وسياسية واجتماعية واقتصادية، رغم أنه كان بعيداً كل البعد عن استعمال وسائل الإعلام المرئية والمسموعة والمكتوبة .

إحترامه لرؤسائه

لقد اختبرت احترام راهبنا لرؤسائه وطاعته لهم ومحافظته على عاداته الرهبانية التي نشأ عليها .وهذا نا عاينته ولمسته بنفسي .فكان لا يخرج مطلقاً عن النظام الذي جرى عليه .ولكن هذا الأخير كان يُخرَق كلما طُلب إليه ذلك .كان من عادته، وهي عادة النساك القديمة، عدم أكل اللحم بتاتاً .ولما كان مرضه يشتد، وعقره يكبر يوماً بعد يوم، نصح الطبيب أن يُعطى المقويات والمغذيات، فإن وجبة الأرز المسلوق واللبن الرائب لا تكفي وحدها، بل عليه أن يتناول اللحم أيضاً وهذا كان من المستحيل عنده .فلما أمرته بذلك خضع فوراً، وتناول اللحم، تماماً كما تقتضي حالته الصحية .وكم كان يبتهج ويشع وجهه نوراً كلنا ذكرنا أمامه أخبار قداسة البابا وغبطة البطريرك والرؤساء المحليين .وكنت كل مرة أدخل إليه، في وقت تناول الطعام، وأحد الإخوة الرهبان يقوم بإطعامه، كان يتوقف عن الأكل ويصوّب نظره إلى الأرض ويروح يرفع يده اليمنى بصعوبة كلية ليضعها على صدره احتراماً لوجود الأب الرئيس أمامه، كم كان هذا يؤثر كثيراً في نفسي، فأخجل أمامه من ذاتي لمحافظته على عاداته الرهبانية الحميدة، وكأني به يتمتم وصية أبينا المؤسس القديس عبدالله قراعلي القائلة" :ليتخذ الراهب رئيسه، بمنزلة المسيح مع قطع النظر ."وأستطيع القول إنه لم يعص لي أمراً واحداً، بل كانت راحته تتميم الطاعة المقدسة واحترام من يتعب من أجله .

موهبة كلمة المعرفة

"إن المواهب كثيرة لكنَّ الروح واحد ."يقول القديس افرام" :إنه بالصوم والصلاة يُعطى الإنسان كلمة المعرفة ."ولقد نال أبونا أنطون هذه الموهبة من الروح القدس .فكان ينيرنا بكل شيء، وكأنه يعيش في زمن

المستقبل .فكنت تراه يزرع الأمل والرجاء في قلوب قاصديه، يهدّئ قلق الكثيرين المثقلين بمرارة الحياة والحرمان، والصعوبات الاجتماعية والصحية والروحية .وما سأذكره هو قليل من كثير، لكني سأسرد بعض الحوادث على سبيل المثال :

موت الأم أو إجهاض الجنين؟

زارته امرأة من الجنوب وهي أم لعائلة من خمسة أطفال وقالت له :نصحني الأطباء بإجهاض الجنين لأن هناك خطر كبير على حياتي، وأنا لا أريد أن أرفض عطية الله هذه رغم المخاطر والموت المحتم .جئت أطلب صلاتك لأجلي ولأجل طفلي .

أجابها سوف تسعدين برؤية طفلك بقوة العذراء، ولن يصيب أحدكما مكروه، بل إن الولادة سوف تكون جد طبيعية بقوة العذراء .وفي الواقع، وبعد يومين من وضعها، تركت المرأة المستشفى حاملة ولدها إليه لنيل بركته قبل أن تعود به إلى بيتها .ولما قبل الطفل العماد المقدس، أعطته اسم أنطون، تيمناً بالذي قال لها :لا تخافي، ستسعدين برؤية طفلك بقوة العذراء .

"أمنعك من مغادرة الدير قبل المساء "

وصل السيد سهيل سابيلا، الصديق الحميم لأبونا أنطون ولنا جميعاً إلى الدير وكان الجو الأمني قاتماً جداً، ينذر بعاصفة قصف مدفعي هوجاء .لقد ترك مقر إقامته في بلدة حالات قاصداً مكتبه في بيروت، ثم إن قوة دفعته إلى أن يصعد إلى عشقوت لنيل بركة أبينا الروحي .وفي الواقع، فقد نجا من الحصار الذي فُرض على منطقة بيروت، في ذلك اليوم، إذ أُغلق نفق نهر الكلب بالسواتر الترابية لمدة طويلة، وانقطع أي اتصال بين المنطقتين، كما دارت معارك عنيفة هناك .

ولما همّ بالرحيل، أشار له أبونا أنطون بطريقة قاطعة وصارمة أن يبقى في الدير، وأنه يمنعه من مغادرته قبل الساعة الثالثة والنصف بعد الظهر .وبدا السيد سهيل في حيرة تامة، فعليه أن يرجع إلى عائلته وأبونا أنطون يمنعه من مغادرة الدير، رغم أن الساعة تشير إلى حوالي الساعة العاشرة صباحاً .ولكن في الواقع، لم يمض بعض الوقت حتى هبّت عاصفة مجنونة، فقد اشتعلت المحاور كلها بالقصف المدفعي الثقيل حتى ان الدير بات في خطر شديد، ورحنا نختبئ في الزوايا منتظرين ساعة انهيار السقف علينا .وكان كلما اقترب منتصف النهار، ازداد القصف حتى بلغ أشده نحو الساعة الثالثة والربع بعد الظهر .وفي تمام الساعة الثالثة والنصف، هدأ كل شيء بغتة كما سبق وقال أبونا أنطون .عندها سمح له بمغادرتنا والرجوع إلى بيته .وطيلة المعركة، كنت أقول للسيد سهيل :أرى أن المعركة ستطول وستبيت عندنا في الدير .أما هو فكان يجيبني :كلا، سأرجع إلى بيتي في الوقت الذي حدده لي أبونا أنطون .وفي الواقع، انطلق بسيارته عائداً إلى بيته وكله ثقة بكلام أبيه الروحي إذ لا خطر عليه، وقد عرفنا لاحقاً أن القوات النظامية قد تسببت بهبوب هذه العاصفة المجنونة كتغطيةٍ لمرور قافلة الجرحى والمصابين الذين وقعوا في ساحة القتال .

للخطيئة رائحة كريهة

وصل كاهن الدير ومعه رجل في منتصف العمر وأرادا زيارة حبيبنا .فرافقتهما إلى غرفته .ولما دخلا، نظر أبونا أنطون إلى الرجل نظرة ملؤها الغضب وأومأ إليه بيده بصعوبة أن يخرج .فما كان من الرجل إلا أن قفز بطريقة غير عادية إلى الخارج ورفض في ذلك اليوم استقباله .وراح ذلك المسكين ينتحب وبات أسبوعاً كاملاً قلقاً، مضطرباً لا يهدأ له بال .ثم عاد ثانية وكلمني قائلاً :لماذا عاملني أبونا أنطون هكذا؟ فأجبته :لا أدري .

فقال لي :أريد أن أراه ولكني خائف ومضطرب وقد مضى علي أسبوع ولم يغمض لي جفن .فما العمل؟

قلت له :أعطيك نصيحة أخوية فإذا تممتها قبِلك أبونا أنطون وباركك .وأنا أكيد من ذلك .إذهب إلى الكاهن أولاً واعترف بخطاياك ثم عد فندخل سوية عليه وحتماً سوف تنال مبتغاك .وهكذا كان .وبعد سماع اعترافه دخلنا سوية إليه، فما كان من حبيبنا أن ابتسم لذلك الرجل وباركه .ولا تسل كيف ذهب ذلك المسكين فرحاً، مهللاً ومباركاً الله على نعمه .

حتماً لقد أُعطيت لأبونا أنطون موهبة مقدسة، وهي أنه كان يرى ما في داخل الإنسان ولا يتوقف قط عند المظهر الخارجي، كما أعطي لبعض القديسين كفيليبوس النيري وغيره، موهبة شم رائحة الخطيئة، وكل ذلك لبيان الآخر وخلاص نفسه ولدخوله في راحة الله .

كيف أستطيع لقاء الله؟

دخل عليه كاهن شاب وسأله :أبتِ أود أن أطرح عليك سؤالاً مهماً :حسب خبرتك الطويلة، ما هي الطريقة للتعرف على الله واللقاء به؟ فظل أبونا أنطون صامتاً لفترة غير قليلة ثم التفت إليه وأجابه :الصلاة العقلية .

العذراء كفيلة بحماية الدير

ذات يوم اشتد القصف المدفعي، وخال سكان الدير اقتراب وقوع كارثة مدمرة .فهرع الرهبان للاحتماء في الزوايا والأماكن الآمنة وقد حملوا أبونا أنطون معهم خوفاً عليه من أي سوء .فما كان منه إلا أن راح يطمئن الجميع مخففاً هلعهم مردداً :لا تخافوا !لن يصاب الدير بأي أذىً .إن السيدة العذراء هي حاميته .ثم طلب منا أن نرجعه إلى فراشه في قلايته، وأذكر أنه في ذلك اليوم انهمرت القذائف بمعدل قذيفة كل ثلاثة أمتار على طول الدير ومحيطه، وفي بستانه وكرومه، كما انفجرت قذيفة عنقودية فوق قبو المواشي مخلفة ثقوباً في سطحه .أما هو فقد ظل هادئاً مسلماً ذاته لإرادة الرب وعنايته وبقوة صلاته نجونا من مخاطر جمة .

إراحة الغير صلاة !

دخلت ذات يوم إلى أبونا أنطون قرب المساء وكان يصلي .وكنت في حالة عصبية سببها الظروف المعيشية القاسية، إضافة إلى الصعوبات الداخلية، ومشاكل الجمهور وأزمات بعض الإخوة المبتدئين، وقلت له :
أرجوك أن توقف صلاتك مهما كلف الأمر وأن تستمع إلي .فالكل يستفيد من إرشادك وصلاتك وبركتك أما أنا فلا !فأطلب منك أن تسمعني .أعترف أني قلت ذلك بوقاحة غير منتظرة ولا أدري لماذا !فما كان عليه إلا أن نظر إلي باهتمام كليّ، رغم أنه كان لا يوقف صلاته مهما كان يدور حوله .فجلست على كرسي بجانبه وبدأت أخرج من داخلي ما يجول فيّ ويزعجني ويضغط على صدري ويؤلم قلبي لمدة ربع ساعة تقريباً، وبعدها قلت له :أرجوك أن تعطيني جواباً على كل ذلك؟ فما كان منه إلا أن راح يحاول رفع يده بصعوبة كلية صانعاً حركة معبرة للغاية ليفهمني :إرمِ كل شيء خلف ظهرك ولا تهتم إلا كيف ترضي الله وحده .ولم يتفوه بكلمة واحدة بل عاد ثانية إلى صلاته ليغوص فيها .وهذه الحركة كانت كافية أن الله هو الذي يدبر الأمور وحده وليس غيره ومن اتكل عليه لا يخزى .فنحن معشر البشر نصلي إلى الله قائلين له :لتكن مشيئتك ولكن في الواقع نصنع دوماً إرادتنا الذاتية .منذ ذلك الحين، غمرني سلام عميق ودائم واختفت كوابيس كثيرة ولم أعد أنزعج من أي خلاف أو صعوبة، بل أصبحت أقبل الكل كما هم .ولا تسل أيها القارئ كيف خرجت من عنده بعدما رحت أقبّل يديه شاكراً مرتاحاً وكأني إنسان آخر .

التراسل بالبخور

لما رجع الأب جوزف زغيب، وهو إبن رهبنتنا، مدير القسم العربي في إذاعة الفاتيكان من لبنان، بعد أن قام بالتغطية الإعلامية لاحتفالات زيارة الحبر الأعظم البابا يوحنا بولس الثاني إلى وطننا الحبيب، حمل لي معه بعض الرسائل المرسلة من الإخوة الرهبان والأصدقاء .وكان ذلك يوم الثلاثاء 13 أيار 1997، يوم عيد سيدة فاطيما وذكرى محاولة اغتيال الأب الأقدس في ساحة مار بطرس -الفاتيكان .وبعد طعام الغداء، دخلت غرفتي ورحت أفتح الرسائل وأقرأ ما جاء فيها .ثم أخذت رسالة كُتب عليها اسمي دون اسم المرسِل، وعندما فضضتها فاحت منها رائحة بخور ذكية للغاية كرائحة البخور الذي يستعمل في كنائسنا الشرقية، مما يملأ وينعش النفس ويلفت الانتباه :نسمة ذكية سماوية تجعلك تتذوق طعم السماء، ثم تختفي فجأة .ماذا كان يحتوي ذلك المغلف؟ كانت هناك صوراً فوتوغرافية لأبونا أنطون أُخذت له من أحد زواره عندما كان شاباً، وقد أُرسلت إلي من باب المحبة التي تشدني إلى هذا الراهب القديس .عندها أخذني العجب وقمت أفتش عن مصدر رائحة البخور فخرجت إلى الممشى الخارجي، ودخلت الكنيسة والسكرستيا، علّني أجد أحد الآباء يقوم بخدمة الأفخرستيا فلم أجد أحداً .

فالوقت وقت استراحة .فعلمت عندها أنها هدية مرسلة لي من لدن ذلك الذي خدمته في دير عشقوت .فشكرت الرب على هذه الهدية الحلوة بمناسبة زيارة الحبر الأعظم لبلدنا .هذه كانت طريقته في مراسلة أحبائه من حين إلى آخر .وعندما رجعت في عطلة الصيف إلى لبنان، شكرته على رسالته، فما كان منه إلا أن انهمرت الدموع كالعادة غزيرة من عينيه .

نعمة الدموع

إن للدموع سرّيتها في الحياة الروحية وفي منطق الآباء القديسين .وهي تعتبر نعمة سماوية كبقية المواهب التي يوزعها الروح القدس .هذه الموهبة أُعطيت أيضاً إلى أبونا أنطون .كنّا نتعجب من غزارة الدموع هذه .فقد كانت تنهمر في مناسبات عدة .مثلُ ذلك :لدى ذكر اسم الأم البتول، كانت دموعه دموع فرح ومحبة بنوية، كانت تنهمر للدلالة على التواضع والاعتراف بالضعف؛ وعند طلب صلاة من أجل ارتداد خاطئ، كانت تترقرق شفقة وتكفيراً؛ وعند طلب نعمة ما، كالحصول على شفاء مريض، كانت دموعه دموع لجوء إلى شفاعة أم يسوع، وتعبيراً عما يوحي له الروح القدس .فقد كانت بمثابة أجوبة سماوية يرسلها الله لنا على يده .

أبونا أنطون والألم

على مثال قديستنا رفقا، فهم أبونا أنطون قيمة الألم مع المسيح، بعد أن أمضى حياته بصوم مضنك وتقشف وعيش التخلي والتجرد عن الذات، حتى صحّ فيه، نشيد بولس الرسول الصارخ" :من يفصلني عن محبة المسيح ! أضيق أم شدة؟ أم اضطهاد، أم جوع، أم عري، أم خطر، أم سيف؟ فكما ورد في الكتاب" :إنّما من أجلك نعاني الموت طوال النهار ونُعَدُّ كأننا غنم للذبح ."(روم 8/35-37).

هذا الموضوع الكبير الأهمية في العهد الجديد، يشكّل إحدى التطويبات في عظة الجبل .

قال يسوع" :**طوبى لكم إذا عيّروكم** "(متى 11/5):وقد عُيِّر أبونا أنطون بأمور شتّى .فقد جعله البعض، وهم قلة والحمد لله، وكأنه يتعاطى أمور الشعوذة والعرافة ومعرفة الغيب وما شابه ذلك .ألم يُتّهم السيد أنه يُخرج الشياطين ببعل زبوب؟

"**واضطهدوكم** "(متى 11/5):وكاهننا أيضاً اضطهد من أقرب إخوته الرهبان إليه، يوم كان حديث الكهنوت، إذ أنزله لأحدهم عن المذبح المقدس بقسوة وجفاء مانعاً إياه عن تتميم قداسه، وذلك عن حسد وغيرة . ومع ذلك بقي صامتاً وهادئاً .

"**وقالوا عليكم كلّ كلمة سوء من أجلي كاذبين** "(متى 11/5):وحبيسنا اتُّهم في بادئ الأمر بالعصيان على السلطة الرهبانية وفي الواقع كان ذلك افتراء وسوء فهم .

"**سرّوا وافرحوا فإن أجركم عظيم في السماء، هكذا اضطهدوا الأنبياء قبلكم** "(متى 12/5)وفعلاً، لم نسمع قط أن راهبنا تذمّر أو احتجّ أو جابه بل ظل السرور والفرح ملازمَين له .ولا عجب، فإننا عندما نقرأ سير القديسين، نرى كم تعرّض هؤلاء لتجارب شتّى وهجمات موجعة من الذين حولهم، أمثال :يوحنا الصليبي، وخوري آرس، وألفونس ليغوري، وشربل، ومارينا، ويوحنا فم الذهب وتريزيا الصغيرة وغيرهم، ممن جلدوا أنفسهم حبّاً بالصليب وممن جلدهم الناس دون شفقة .

وفي قراءة سريعة لحياة أبونا أنطون، نفهم جيداً كم للألم من دور مهم في صقل نفسه :ألم يقل الرب في سفر يشوع بن سيراخ" :يا بني، إن أقبلت لخدمة الرّب فاعدد نفسك للتجربة "(ابن سيراخ 1/2).وقد جاء أيضاً في سفر أيوب" :الإنسان لاجئ على الأرض وكأيام الأجير أيامه "(أيوب 1/6).والأب أنطون عاش في كور النار لتتصفى نفسه كالذهب المذاب .

يمكننا أن نحدد قصة الألم مع ناسكنا في ثلاثة أبعاد :

1. سرّ الصليب هو سرّ محبة الله لنا

لقد بلغت محبة أبونا أنطون لصليب يسوع حداً بعيداً، وقد فهم جيداً أن على تلميذ مدرسة الصليب، أن يتلقن وأن يعلّم الغير على قبول الألم كوسيلة تقديس .فالسيد المسيح لم يمحُ الألم ولم يعِد بمحوه عن هذه الأرض، طالما أن الخطيئة الأصلية قد جرحت الطبيعة البشرية .ولكنه أعطى الألم قيمة ومكانة خلاصية وعلّم بنفسه كيفية قبوله، وها نحن نرى يسوع منطرحاً على صخرة النزاع، ومعلقاً على صخرة الجلجلة، ومسجّى في نقرة صخرة القبر.

وأبونا أنطون فهم هذه الحقيقة .فكان، وكأنه المرسل لنا من السماء، يذكّرنا بالرب يسوع، عندما أرسل تلاميذه، لمحاربة الألم والبؤس والجوع والظلم، أرسلهم ليحاربوا السبب الأول والأخير لشقاء الإنسان ألا وهو الخطيئة .فرسول المسيح ليس بحاجة أن يكون رئيس نقابة، أو مناضلاً حزبياً، أو مساعداً اجتماعياً، أو صاحب سلطة عليا، بل يكفي أن يحارب الخطيئة التي تنزف طبيعتنا، وأن يعلّم كيفية الانتصار على الذات وعلى الجشع والأنانية .وقد أدرك أبونا أنطون كل هذا، وأن الحضارة في مسيرتها لا وقت لها .فكان إلى جانب المتألم، وعلم أن عليه أن يكمّل بجسده ما نقص من آلام المسيح ."فكان ذلك المؤمن الذي جسّد بآلامه سرّ محبة الله لنا ألا وهو سرّ صليب الرب يسوع .

2. سرّ الصليب هو سرّ الشكّ والعثار

ذات يوم، هتف بولس الرسول" :نحن نبشّر بالمسيح مصلوباً، شكّاً لليهود وعثاراً للأمم ")1 قور 23/1(.وفي الواقع، شارك الرب يسوع طبيعتنا، إذ أخذ في تجسده شبه جسد الخطيئة، واختار الألم والموت وجعل منهما وسيلتي خلاص .ألم يعلن يوماً لتلاميذه" :من أراد أن يتبعني، فليزهد في نفسه ويحمل صليبه ويتبعني ")متى 24/16(.وفي موضع آخر، يقول يسوع لبني زبدى" :أما كأسي فسوف تشربانها) "متى 23/20).

أمام هذه الأسرار العميقة الجذور، نكتشف أن الصليب هو "حكمة من الله ."وبحسب الرسول بولس، إن "حكمة الله "هذه هي "المسيح المصلوب شكاً لليهود وعثاراً للأمم، ولنا نحن قوّة الله وحكمة الله ."

وحبيس قاديشا أدرك معنى ومدى هذه "الحكمة"، واكتشف فيها قيمة المخلوقات والأشياء في مخطط الله .وقد ردّد على مسمعيّ، يوم سألته عن حالته الصحية وما آلت إليه :من حرق الثلوج لرجليه، وداء المفاصل ناهشه الدائم، والفطر المتفشي من معدته إلى شفتيه، وعِقر جسده النحيل، أجابني مبتسماً :ما بالك تشابه امرأة أيوب الصدّيق)حرفيّاً :مدام أيوب(يوم رأت ما آل إليه زوجها، فدعته ليجدّف على الرب، بعد أن خسر بنيه ومواشيه وكل ما يملك بالإضافة إلى قرح خبيث أصابه من أعلى الرأس إلى أخمص القدمين، فقد أجابها" :أنقبل الخير من الله ولا نقبل منه الشر؟ ."ويضيف الكتاب" :ومع ذلك، لم يخطأ أيوب بكلمة من شفتيه ")أيوب 10/2 .(

قبل أبونا أنطون أن يحيا هذه "الحكمة "طائعاً لإرادة الآب السماوي مردداً مع الابن المخلص" :يا أبتاه ! لتكن مشيئتك لا مشيئتي ")مر 36/4(.وهذه "الحكمة "غيّرت المفهوم البشري للألم :

- فما هو ربح للعالم)غنى، صحة، ثراء مادي، أمجاد، مناصب، شهرة...(في المسيح يصبح خسارة؛
- وما هو خسارة للعالم)فقر، ألم، مرض، اضطهاد، ظلم،...(سصبح في المسيح غنىً.

واليوم ينتصب ناسكنا أمامنا مجسداً هذه "الحكمة "الإلهية التي تقودنا جميعاً إلى الخلاص .لقد خرج الناس إليه من أماكن عدة، للتبرك، وطلب صلاة وسؤل نعمة ما، وهو الفقير المعدم، "لا فضة عنده ولا ذهب ")رسل 5/3(، ولكنه على مثال الرسل كان يملك يسوع، الكنز الأوحد، لذا بفقره الإنجيلي أصبح غنياً بالله .

نراه عديم الحركة، رجل أوجاع مسمراً على فراش الألم .فصحّ فيه ما قاله الرب يسوع يوحنا المعمدان" :ماذا خرجتم إلى البرية تنظرون؟ ")متى 7/11(وما قاله النبي أشعيا عن يسوع المتألم ":لا منظر له فنشتهيه ")أشعيا 2/53(.وأبونا أنطون، رغم آلامه الدائمة وأوجاعه المبرّحة، لم يفتح فاه ولم يتذمر، ولم يطلب علاجاً أو طبيباً، بل سلّم أمره إلى الذي خلقه مشابهاً معلمه الإلهي، يوم "سيق كحملٍ إلى الذبح وكنعجة صامتة

أمام الذين يجزونها ولم يفتح فاه ")أشعيا 7/53(، مردداً فقط ساعة تداهمه الأوجاع" :إرحمني يا الله كعظيم رأفتك ")مز 3/51(هذا يدل على أنه عاش الألم كفعل تكفير وتعويض عن خطاياه وخطايا العالم، وإن رحمة الله وحكمته، كما علّم الرسول بطرس هي" :من تألم مع المسيح، ذلك نعمة كبرى ")1 بط 13/4-14 .(

3. سوية مع أبونا أنطون أمام الصليب

يصطدم العالم بشكّ الصليب، لأنه لا يلج إلى معنى الألم .ونحن كمسيحيين مدعوون لأداء الشهادة لحكمة الله هذه .فنحن لا نحياه ولا نتكلم عنه إلا قليلاً، بل نسعى وراء وهم يَعِدُ "بالفردوس على الأرض "ولا نعلن للعالم مخطط الله الخلاصي الذي يشكل فيه الألم عنصراً مهماً .

لقد سبر الأب أنطون مكنون هذا السر وأعلنه بمثله وعيشه إياه .كان يضرع من أجل المتألمين والمرضى والمصابين بالعاهات المختلفة، طالباً لهم شفاء النفس والجسد .ومع ذلك، لم يبادله أحد الصلاة لأجل شفائه هو بالذات من أمراضه الكثيرة والدائمة والمزمنة .وكم من الذين حصلوا على نِعم وشفاءات بفضل دوائه الوحيد والناجع لكل مرض يصيب الروح والنفس والجسد ألا وهو "دواء الصلاة "الذي كان يستعمله أبونا القديس مارون كعلاج لكل العلل، كما جاء في تاريخ تيودوريطس .

كان يصلي بقلبه، بعقله، بجسده، مشابهاً يسوع "الذي حما آلامنا واحتمل أوجاعنا ")أشعيا 4/53(، وكبولس الرسول الذي قال ..." :أكمّل بجسدي ما نقص من آلام المسيح، بجسده الذي هو الكنيسة ."

الألم مدعاة فرح وسرور عند أبونا أنطون

لقد حسب أبونا أنطون الألم وكأنه نعمة خاصة من الله .وكلّ ما يرسل لنا الله هو هدية .وكلّ هدية مهما كانت وضيعة أو صغيرة، فإنها تحمل لنا دوماً الفرح والبهجة .فالبسمة لم تفارق وجهه إطلاقاً، ومُحيّاه كان يُرى وكأنه يطفح هدوءاً وسلاماً وبهجة .ومما لا شك فيه، بوسعنا القول أنه عرف الألم :

- كوسيلة تطهيرٍ له من تجارب الجسد وأهواء النفس وروح العالم.
- كوسيلة مجدٍ إذ به يعبر الإنسان إلى الله الآب، وصدر فرحنا وحياتنا وسعادتنا .فهو على مثال يسوع الحمل الذبيح والقائم من الموت" .يجب على المسيح أن يعاني تلك الآلام فيدخل في مجده ")لو 26/24.(
- كوسيلة رسالة :فقد شابه حبة الحنطة التي تموت لكي تحيا للآخرين، وعلى مثال يسوع، مشى أبونا أنطون طريق تقدمة الذات من أجل التبشير بالملكوت، حاملاً للذين عرفوه، الأمل والرجاء، مبشراً بطلوع صبح جديد لكل مفتشٍ عن ملكوت الله وملتمسٍ وجهه، حتى يتصوّر يسوع في داخلهم، ويلمسون حضوره الدائم .لقد قال الرب" :لن أدعكم يتامى ...آمنوا بي ... لا تخافوا .فها أنا معكم طول الأيام إلى منتهى الدهر."

من هنا نكتشف أن حبيس وادي قاديشا، عاش حياته ناسكاً، منزوياً عن العالم، ولكنه عاش أيضاً رسولاً مرتداً على شرور العالم .فهو كمن يقوم بخطوة إلى الوراء من أجل عشرة إلى الأمام .لذا فهو لنا مدعاة فرح وابتهاج لافتقاد الله لنا بهذه البركة السماوية .

خاتمة

أكتفي بسرد هذه "الشهادات الحية "معتبراً نفسي أني حاولت القيام بواجب مقدس تجاه هذا الراهب الكاهن وتجاه الذين عرفوه، خصوصاً إخوتي وإخوته الرهبان المريميين الموارنة، الذين طلبوا مني أن تُحفظ كتابة هذه "الشهادات الحية "كعلامة حضور لمحبة الله لنا" .وأنا تكلمتُ بما عاينتُه وشهادتي حقٌ هي "وإني لأضع هذه الصفحات تحت حكم أمنا الكنيسة المقدسة .فالطاعة هي خير دليل على المحبة والضمانة الأكيدة لقداسة النفس وخلاصها .فالشكر للرب يسوع الذي تلمذني في مدرسة "محبة الله ومحبة العذراء"، على يد ناسكه

ورسوله المريمي الأب أنطونيوس طربيه التنوري، هو وحده يزيّنُ عروسته الكنيسة بنفوسٍ قديسة بارّة، والتي لا تبرح تصرخ له دوماً بفم أولادها :

تعال أيها العروس السماوي، تعال أيها الرب يسوع .آمين .

عيد القديس فيلبوس النيري الأب فيليب الحاج
دير القمر 2000 رئيس أنطوش سيدة التلة